



معالم دمشق الإسلامية في الديوان الدمشقي



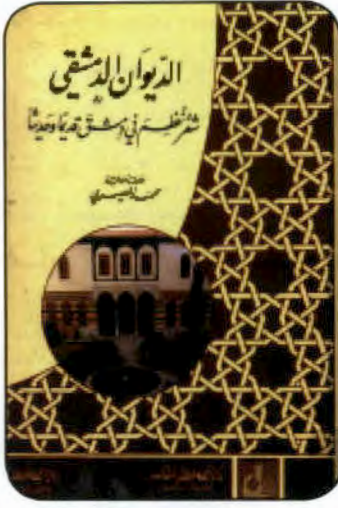
د. محمود محمد أسد - سورية

ارتبط الانسان منذ نشأته الأولى بالمكان الذي يحيط به، وتعلق به، ونشده بالقرب والبعد، فتغنى به، واستدعى أجمل الذكريات وأعذبها، وهذه العلاقة يقوى شأنها مع تقدم الزمن إذا كان الطرف الآخر يملك رقة الطبع ودفع الإحساس، فتتدفق مشاعره إعجاباً وإكباراً، وتساعد على ذلك قريحة شعرية فطرية عذبة، ينهل منها قلمه بنسغ من ذاكرة حية تبثه أعذب الذكريات المحفورة في خلد. وهذا العشق يقوى ويتجذر إذا كان المكان نابضاً وحيّاً، يجد فيه المرء ما يشده إليه، فيأسره حباً ووجداً فيزوره ويستمتع بمعالمه، وهذا حال دمشق الفاتنة. دمشق الماضي العريق والحاضر الوائب المتوهج، تبقى دمشق الساحرة إحدى المدن الحية التي ما زالت تنبض بالحياة، تلمح مجيئها ووجداً وهياماً وتعلقاً.

ويضاف إلى ذلك طبع أهلها ورقتهم، وحسن معشرهم، هذا شأنها عبر تاريخها الطويل كغيرها من المدن التي تشد الألباب والأنفس كمكة والمدينة وبغداد وحلب والقاهرة والقدس، والكتب التاريخية والأدبية وكتب التراجم والتاريخ ذكرت الكثير من محاسن دمشق ومعالمها وطبائعها، وأشادت بفضل علمائها وهي كتب كثيرة، ويضاف إليها دواوين الشعراء القدماء والمعاصرين وهذا ما أوحى إلى الأستاذ محمد المصري الذي جمّع وحقق بعد جهد

فهي من المدن الأسيرة لمن يسكنها أو يحل بها أو يمرّ عابراً. تأسره برغبته، فيمّغ في شرك هواها وحبها طائعاً. وهي الأثيرة والمفضلة عند التمييز والمفاضلة بين المدن، لا تنقصها مقومات الجاذبية والإغراء، فيها ما يسحر الألباب. فالنفس ترتاح إلى طقسها اللطيف المعتدل ومناخها المنعش، فيها الماء النмир والينابيع الغزيرة، والظلال الوارفة والفواكه الناضجة، فيها ما يبعث الحب لها، فيحن إليها الزائر والمسافر، ويهزه آلام الفراق عنها،





جهيد، فأصدر (الديوان الدمشقي)^(١)، وقد أغناه بالحواشي والتعريفات والمراجع، وهذا الديوان الدمشقي أوحى إليّ بالموضوع فجعل اعتمادي عليه. دمشق عاصمة الأمويين، وحاضرة العرب المسلمين عبر تاريخها ومسيرتها المديدة الحافلة بما يسرُّ ويقلق ويبكي، حظيت باهتمام ورعاية الخلفاء والأمراء والسلاطين والعلماء، فكانت منهل إشعاع وعلم وحضارة. مساجدها ومعالمها الدينية والعلمية معاهد علم وأدب وحضارة ولم تزل، ولذلك لا غرابة إن وجدنا الكثير من القصائد والمقطوعات التي تصف معالمها الإسلامية بدياناً وزخرفة وفناً وموقعاً ومكانةً، وأغلبها تشيد بدورها الإسلامي الحضاري عبر التاريخ.

ومن الطبيعي أن يحظى المسجد الأموي بالأولوية والسبق لما له من أهمية ودور، وقد بني في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، واكتمل بناؤه في عهد أخيه سليمان، وصُرِفَتْ عليه الأموال الكثيرة، وألْقَتْ حوله عدّة كتب.

هذا المسجد نال استحسان المقيمين والوافدين فأكثروا من وصفه، وأحاطوه من كل جانب، وهذا واردٌ في أغلب القصائد، فالشاعر المصري ابن نباتة الذي سكن الشام مدة يقول فيه معجباً^(٢):

في الجامع الأموي الحسنُ مُجْتَمِعٌ

وبابُه فيه للأحداقِ لُذَاتُ

دقائقِ الحسنِ يحويها له درجٌ

فحبذا منه بالساعاتِ ساعاتُ

وللأديب العماد الأصفهاني المتوفى بدمشق ١٢٠٠م - وهو صاحبُ كتاب فريدة القصر - قصيدة مطوّلة ذكرها حين فارق دمشق وابتعد عنها، فتشوق إليها، وإلى معالمها، ومنها مسجدها الأموي فجاء منها^(٣):

وما جنةُ الخلدِ إلا دمشقُ

وفي القلبِ شوقٌ إليها سفيرُ

ميادينها الخضِرُ فيحُ الرحابُ

وسلسالُها العذبُ صافٍ نَمِيرُ

وجامعها الرُخْبُ والقبةُ

المنيفةُ والفلكُ المستديرُ

وفي قبةِ النُسرِ لي سادةُ

بهم للمكارمِ أفقٌ منيرُ

وعبّر الشاعرُ محمد أمين بن فضل الله عن شوقه وأراد أن يجعل قصيدته إكليلاً لجبهة دمشق، يصف محاسنها وظلالها وفضائلها، ومنها وصفُ المسجد الأموي^(٤):

ولي إلى الجامعِ شوقٌ دالِه

لا يفتُرُ الدهرُ عن التذكّارِ

للهِ أقوامٌ به أعزّةُ

من خلّصِ الأخيارِ والأبرارِ

والشاعر بدر الدين حسن فاضل بحبه للمسجد الأموي، وأبرز مكانته في نفوس الناس الذين يصلّون به^(٥):

مُعَبِّدُ الشامِ يجمعُ الناسَ طَرّاً

وإليه شوقاً تميلُ النفوسُ



كيف لا يجمعُ الوري وهو بيتٌ
فيه تجلى على الدوام العروسُ
والعروس منارة الجامع الأموي الشمالية،
وذكرها الشاعر الشيخ عبد الغني النابلسي وهو
يمدح ويتحَبَّبُ للمسجد الجامع^(١)؛

حبُّذا الجامعُ الذي في دمشق
أثَقَّنَتْهُ البانُونُ وفقَّ النفوسِ
ملؤوا صحنَهُ من النقشِ حتَّى

وَضَعُوهُ قَدَامَ تلك العروسِ
وللشاعر الدمشقي فتیان الشاغوري قصائدُ
كثيرة في دمشق وهو منسوبٌ إلى حيِّ الشاغور
بدمشق، وتوفي بدمشق ١٢١٨م، وكان مؤدِّباً لأولاد
الملوك. وصف قبة المسجد الأموي وحَمَلَ النَّسْرِ لها،
وقبة النسْرِ بناها الوليد بن عبد الملك، ولها شمسيات
ملونة ومذهبة وسمَّيت بالنسْرِ لأن الرواقات عن
يمينها وشمالها كالأجنحة^(٢)؛

ما غادة راکبة النَّسْرِ وقد
بَدَتْ لأبصار الوري نقوشها
يحملها النَّسْرُ الذي أضحى له
من الطواويس الذكور ريشها

خافت سَطَاطها الشمس في مصامها
وذاك إذ شكَّ الهلال شيشها
ولفؤارة المسجد الأموي العظيم نصيبٌ من وصف
الشعراء فهذا الشاعر جعفر بن دواس الكناني
المعروف بقمر الدولة^(٣)؛

رَأَيْتُ بِالْجَامِعِ المَعْمُورِ مُعْجِزَةً
في جَلْقٍ كُنْتُ أَجْدَى مِنْ بِهَا سَمِعَا
فَوَارَةً كُلَّمَا فَارَتْ فَرَّتْ كَبْدِي
وماؤها فاض بالأنفاسِ فاندفعا
كأنها الكعبة العظمى، فكلُّ فتى
من حيث قابل أنبوباً لها ركعا

ويرفع الشاعر ابن نباتة من شأن المسجد الأموي
ويشيد بحسنه وبهائه الساطع^(٤)؛

الجامعُ الأمويُّ أضحى حُسْنُهُ
حُسْنًا عليه في البرية أجمعا
حَلَوُهُ إِذْ حَلَوُهُ، فانظر صحنَهُ

تلقاه أصبح للحلاوة مجمعا
ويذكر ابن عساكر في تاريخه: أنشدني بعض
أهل الأدب في جامع دمشق ويذكر الكثير من معالم
المسجد وجزئياته دون أن يخفي الشاعرُ مشاعره^(٥)؛

دمشق قد شاعَ حُسْنُ جامعِها
وما حَوَتْهُ رُبا ربا جمعا
بديعة المذن في الكمال لما
يُذَرِّكُهُ الطَّرْفُ من بدائعها

جامعُها جامعُ المحاسنِ قد
فاقت به المذن في جوامعِها
وبنيَّةٍ بالإتقانِ قد وُضِعَتْ
لا ضيَعَ الله سعيَ واضعِها
وإن تضرَّرت في قناطرِها
وسَقَطَ بِهَا حِذْقُ رافعِها

إِنَّ سَامَكَ الْخَطْبُ الْمَهُولُ فَأَقْلَقَا
 انْزِلْ بِأَرْضِ الشَّامِ وانْزِلْ جَلْقَا
 بِلَدٍ سَمَتْ بَيْنَ الْبِلَادِ مُحَاسِنَا
 وَفَمَتْ بِهَاءٍ وَاسْتَزَادَتْ رَوْنَقَا
 وَالصَّالِحِيَّةُ يَا لَهَا مِنْ مَنْزِلٍ
 فِيهَا قُبُورُ الصَّالِحِينَ أُولِي التَّقَى
 مَا الْجَامِعُ الْأَمْوِيُّ إِلَّا نَزْهَةٌ
 فِيهَا تَرَاهُ بِالْعِبَادَةِ مُشْرِقَا
 قَدْ أَتَقَنَتْ صُنَاعُهُ بُنْيَانَهُ
 فَاتَى الْمَزْخَرُفُ زَانَهُ وَتَأَنَّقَا
 وَلرَأْسٍ يَحْيَى فِيهِ نَوْرُ مَهَابَةٍ
 مَا بَيْنَ هَاتِيكَ السَّوَارِي أَشْرَقَا
 وَالْحَائِطُ الْقَبْلِيُّ زَادَ جَلَالَهُ
 بِمَقَامِ هُوْدٍ، مَنْ يَزُرُهُ تَحَقَّقَا
 وَتَرَى دُرُوسَ الْعِلْمِ فِيهِ دَائِمَا
 فِي كُلِّ فَنٍّ، مَنْ تَدَاوَلَهُ رَقَى
 وَعَلَى كِرَاسِيهِ رَقَّتْ وَعُظَاهُ
 تَتْلُو أَحَادِيثَ النَّبِيِّ الْمُنْتَقَى

وَإِنْ تَبَيَّنْتَ حُسْنَ قَبِيَّتِهِ
 تَحَيَّرَ اللَّبُّ فِي أَضَالِعِهَا
 مَجَالِسُ الْعِلْمِ فِيهِ مَوْنَقَةٌ
 يَنْشُرُجُ الصَّدْرُ فِي مَجَامِعِهَا
 دَامَتْ بِرَغَمِ الْعِدَى مُسْلِمَةً
 وَحَاطَهَا اللَّهُ مِنْ قَوَارِعِهَا
 وَهَنَّاكَ قَصِيدَةً لِلشَّاعِرِ النَّابِغَةِ الشَّيْبَانِي، وَفِيهَا
 يَمْدَحُ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، ثُمَّ يَصِفُ الْجَامِعَ الْأَمْوِيَّ
 وَمَا حَوَاهُ مِنْ زِينَةٍ وَدُرٍّ وَتَحْفٍ، وَأَظُنُّ أَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ
 الْقَصَائِدِ الَّتِي تَصِفُ الْمَسْجِدَ، فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَبْرُزُ
 الشَّاعِرُ دَوْرَ الْمَسْجِدِ وَرِسَالَتِهِ فَيَقُولُ (١١):
 فَالْيَوْمَ فِيهِ صَلَاةُ الْحَقِّ ظَاهِرَةٌ
 وَصَادِقٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعْرُوفٌ
 فِيهِ الزُّبَيْرُ جَدُّ وَالْيَاقُوتُ مُؤْتَلَقٌ
 وَالْكَلَسُ وَالذَّهَبُ الْعَقِيَانُ مَوْصُوفٌ
 وَقُبَّةٌ لَا تَكَادُ الطَّيْرُ تَبْلُغُهَا
 أَعْلَى مُحَارِيْبِهَا بِالسَّاجِ مَسْقُوفٌ
 فَكُلُّ إِقْبَالِهِ، وَاللَّهُ زَيْنُهُ
 مُبْطِنٌ بِرِخَامِ الشَّامِ مُحْفُوفٌ
 فِي سُرَّةِ الْأَرْضِ مَشْدُودٌ جَوَانِبُهُ
 وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الْأَنْهَارُ وَالرَّيْفُ
 فِيهِ الْمُثَانِي وَآيَاتٌ مُفْصَّلَةٌ

فِيهِنَّ مِنْ رَبِّنَا وَعُدُّ وَتَخْوِيفُ
 هَذِهِ الْقَصَائِدُ امْتَلَكَتِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْوَصْفِ،
 وَقَدَّرَتْ عَلَى التَّصْوِيرِ وَالتَّقَاطُطِ الزَّوَايَا الْجَانِبِيَّةَ
 مِنَ الْمَسْجِدِ، وَالتِّي لَمْ يَصِفْهَا الشُّعْرَاءُ إِلَّا لِتَأَثُّرِهِمْ
 وَحُبِّهِمْ وَاعْجَابِهِمْ فَالْشَّيْخُ عَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيُّ
 لَهُ قَصَائِدٌ عِدَّةٌ فِي دِمَشْقَ، وَمِنْهَا هَذِهِ الْقَصِيدَةُ
 الَّتِي يَذْكُرُ مَزَارَاتِ حَيِّ الصَّالِحِيَّةِ، وَبَعْدَهَا يَعْرِجُ
 إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَمْوِيِّ، وَيَصِفُ مَا فِيهِ مِنْ مَشَاهِدٍ
 وَأَمَاكِنَ (١٢)؛

بوابة الصالحية



يَالَيْلَةَ النَّصْفِ الشَّرِيفَةِ فَازْ بَا
إِسْعَادَ مَنْ قَدْ كَانَ فِيكَ مُوَفَّقَا
هَذَا قِيَابُ النُّورِ تَشْعَلُ فِي الدُّجَى
لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا امْرُؤٌ أَنْ يَرْمَقَا
وِثْلَاثُ هَاتِيكَ الْمَآذِنِ تَنْجَلِي
مِثْلَ الْعِرَائِسِ قَدْ لَبَسْنَ الْيَلْمَقَا
مَنْ فَوْقَهَا أَهْلُ الْأَذَانِ تَرَا سَلُوا
بِتَرْتُمُ يُشْجِي الضَّوَادَ الشَّيْقَا
هِيَ شَامُنَا أَعْلَى الْإِلَهِ مَنَارَهَا
وَبِهَا أَدَامَ اللَّهُ عَيْشَا رَيْقَا
الشَّاعِرُ نَقَلْنَا إِلَى أَجْوَاءِ الْمَسْجِدِ وَطَقُوسِهِ وَمَا
يَجْرِي فِيهِ، صَحِيحٌ أَنَّ هُنَاكَ قِصَائِدَ تَنْشَابُهُ فِي
وَصَفِ الْعِمْرَانِ وَرُوعَةِ الْبَنِيَانِ وَالزَّخْرَفَةِ وَلَكِنَّ هُنَاكَ
قِصَائِدَ تَضِيفُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فَتَكْمُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا



باب شرقي

وتعطي الصورة الكاملة. وكان المسجد الأموي مبعث
الشوق والتذكُّار للأيام الحلوة التي أمضاها الشاعر
مجد الدين محمد بن محمد. فقد حنَّ واشتاق فعبرَ
بقصيدة تزيد عن مئة بيت مطلعها^(١٢):

لَعَلَّ سَنَا بَرَقَ الْحِمَى يَتَأَلَّقُ
عَلَى النَّأْيِ أَوْ طَيْفًا لِأَسْمَاءٍ يَطْرُقُ
ثُمَّ يَقُولُ:

حَنِينِي إِلَيْهَا مَا حَيَّيْتُ مُرْجَعُ
وَقَلْبِي أَسِيرُ الشُّوقِ وَالْدَمْعُ مُطْلَقُ
لِجَامِعِهَا الْمَعْمُورِ بِالذِّكْرِ بِهَجَّةُ
وَمَرَأَى يَسُرُّ النَّاضِرِينَ وَرَوْنُقُ
فَالشَّاعِرُ يَشِيرُ إِلَى وَقْفِ الْجَامِعِ وَمَا يَقْدُمُهُ
لِلوَافِدِينَ وَالدَّارِسِينَ وَغَيْرِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُ:

بِهِ زَجَلُ التَّسْبِيحِ عَالٍ يَهْيِجُهُ
حَنِينٌ إِلَى ذَاكَ الْحِمَى وَتَشْوُنُ
وَلِلْعَلَمِ فِيهِ وَالْعِبَادَةِ مَعْلَمُ
جَدِيدٌ عَلَى مَرَّ الْجَدِيدِينَ مُوَنِقُ
وَفِيهِ لِأَرْبَابِ التَّلَاوَةِ لَذَّةُ
إِذَا أَخَذُوا فِي شَأْنِهِمْ وَتَحَلَّقُوا
وَكَمْ فِيهِ مِنْ مَثْوَى نَبِيٍّ وَمَشْهَدِ
بِنَسَبَتِهِ يَسْمُو مُحَلًّا وَيَسْمَقُ
وَكَمْ قَائِمٌ لِلَّهِ فِيهِ تَهْجِدًا
بِدَعْوَتِهِ يُكْفَى الْخَوْفَ وَيُزْرَقُ
مَصَابِيحُهُ تَجْلُو الظُّلَامَ كَأَنَّهَا
مَصَابِيحُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ تَأَلَّقُ
وَقُبَّتُهُ مَاوَى الْهَلَالِ وَبُرْجُهُ
وَفِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْهُ لِلْحَسَنِ مَشْرِقُ
وَقَدْ جَاوَزَ الْجُوزَاءُ فِيهِ مَآذِنُ

بَأَكْنَافِهَا نُورُ الْجَلَالَةِ مُخْبِقُ
هَذَا الْوَصْفُ الدَّقِيقُ وَالْجَمِيلُ أَكْمَلُهُ حَسَنُ تَوْفِيقِ
الشَّاعِرِ بِالرُّوْيِ (القاف المضمومة) الَّتِي فِيهَا إِحْيَاءُ

ثم يشير الشاعر إلى الساعات المائية أمام باب
الساعات وهو الباب الشرقي:

وببابه حركاتُ ساعاتٍ إذا

فتحتُ لها باباً تراجع مُقَفِّلاً

وُيريكُ باريها وكلُّ قد رمى

من فيه يقذفه، يصيبُ سَجَنَجلاً

ويختمها:

وغريبٌ وصفي قد أتاك مُفَصِّلاً

وسواه لا يأتيك إلا مُجملاً

واعترَّ الشاعر البدر بن حبيب بالمسجد الأموي
وبالمكانة الرفيعة التي تفوق كلَّ منزلة، وهذا حال
الكثيرين وإن بالغوا في ذلك، فالموقف والحبُّ والشعرُ
قد يبرِّرُ لهم ذلك فيقول^(١٥):

ويَمُّ نحوهُ في كلِّ وقت

وصلُّ به تصلُّ دار الإقامة

مُصلِّي فيه للرحمن ذكرٌ

ومثوئ للقبول به علامة

دمشق لم تزل للشام وجهاً

ومسجدها لوجه الشام شامة

أدام الله بهجته وأبقى

محاسنهُ إلى يوم القيامة

أهناك أرقُّ من هذا الشعور وأدفاً من هذه

الأمنيات؟

والشاعر الدمشقي عدنان مردم بك الذي تغنَّى

بدمشق وأغدق عليها أروع أشعاره كما أغدقت عليه

نفسية جميلة. وهذا الوصف المركِّز يوحى بخصوصية
الذكريات وغناها، ويدلُّ على دور المسجد ومكانته في
حياة الشاميين. فكان للعبادة والدراسة وطلب المعرفة
وأداء المناسبات الاجتماعية الرابطة للمجتمع.

والمطوَّلات التي تقدِّم هذا الوصف كثيرة وهي
قصائد فيها الصدق والعمق، وما من قصيدة مطوَّلة
إلا ولها وقفة عند المسجد الأموي، فالشاعر أبو الفضل
إسماعيل بن سلطان بن علي بن منقذ الكتاني له
قصيدة من مئة بيت، وفيها ذكر للمزارات ودور العبادة
والصالحين، وهذا سوف أعود إليه ولكنه في هذه
القصيدة توقف عند المسجد وأشاد بروعة بنائه^(١٦):

وكان جامعها البديع بناؤه

ملكٌ يميز من المساجد جَحْفلاً

ذو قبة رُفِعَتْ فضاهاً قلعة

ومناير بنيت فحاكت مَعْقلاً

يبدو الأهلة في أعاليها كما

يبدو الهلالُ تعالياً وتهللاً

فكانما محرابه من سُندس

فهدي المصيح، وخير المتأملاً

تلي القرآن به وراع بحسنه

أو لؤلؤ وزُمُرْد قد فصلاً

تبدو القبابُ بصحنه لك مثلاً

تبدو العرائسُ بالحلي لتجتلي

وعَلَّتْ به فؤارةٌ من فضة

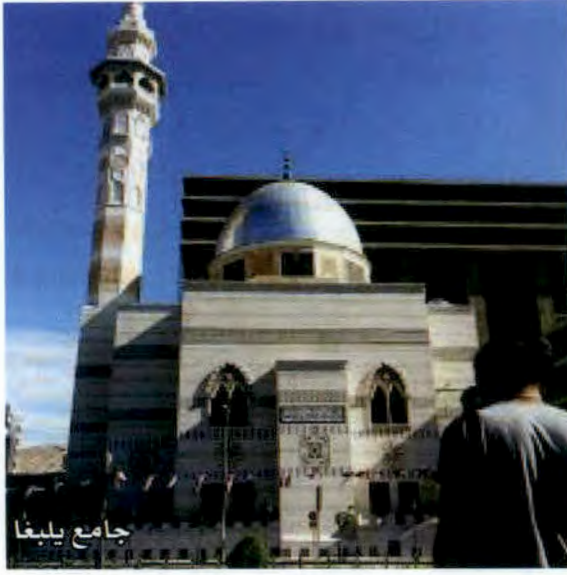
سالتُ فظنُّوها معينا سلسلاً



وَكأن قُبَيْتَكَ المنيفة مُقْلَةً
لا تعرفُ الإغفاء أو غمض الجفون
سهرت عليك رعاية حذر الأذى
من ريب جائحة ومن دهر خؤون
طُوِّفَتْ في أرجاء ربِّعِكَ خاشعاً
أستنطق الأحجارَ عن ماضِ ثمين
في كلِّ زاوية رسومِ حضارةٍ
تومي إلى الماضي، وتكشف عن معين
سبحان من لا عزَّ إلا ملكه
يبقى مع الدنيا على كَرِّ السنين
هذه القصيدة من الدرر الثمينة التي قيلت في المسجد
الأموي فهي غنية بصورها وخيالها ورؤيتها واستباطها
للمسجد والتاريخ وربط ذلك الماضي بالحاضر.
أمرٌ طبيعي أن يشغل المسجد الأموي القسم
الأعظم من الدراسة، ولكن لا بد من وقفات قصيرة
عند بعض المعالم الإسلامية الأخرى التي وردت في
الديوان الدمشقي، ويُعتبر مسجد يلغا ثاني مسجد
في المساحة بعد المسجد الأموي ويقع في ساحة
المرجة وسط دمشق وهُدِمَ وأعيد بناؤه مجدداً سنة
١٩٦٠م، ونال هذا المسجد حظاً من الحب والتقدير
في القصائد والمقطوعات، فيقول أبو الفتح محمد بن
محمد بن عبد السلام^(١٧):

أروع آيات الطبيعة والجمال. هذا الشاعر خصَّ
المسجد الأموي بقصيدة تجاوزت الأربعين بيتاً،
وجاءت رقيقة صافية كنمير بردي ورفيف غوطتها^(١٨):
ضَمِنَ البِناةَ لكِ الخلودَ على السنين
أترى الرجالَ وفواً وكانوا صادقين
رفعوا جدارَكَ عالياً كيقيتهم
فعلوتُ مثلَ النجمِ مُنْقَطِعَ القرينِ
والخلدُ مرهونٌ على ما شِئِدَتْ
هِمَمُ كبارٍ من رجالِ نابغين
ثم يصف المآذن وأصوات المكبرين:
وأرى مآذنك الثلاث تشوِّفَتْ
مَزْهُوَّةً بمطارفِ المتكبرين
راحتُ مُحَلِّقَةً فطاوالت السُها
مفتونةً صُلْفاً بزهو الفاتحين
هي سُلْمُ الإيمانِ يرقى فوقه
لمطالعِ الجوزاءِ أصواتُ اليقين
نُصِبَتْ لتحملَ للسماءِ رسالةً
وتبين عن شكوى وتُفْصِحَ عن شجونٍ
ثم يلتفت إلى وصف العمران الرائع والأعمدة
والقباب:
وترى السقوفَ تَبَسَّمَتْ قِسماتُها
عن روعةِ الإبداعِ والفضنِ المبينِ





إلى يَلْبِغَا فَاذُقْ أَعْلَى الدَّرَجِ
بِشَرْقِيَّةٍ تَلْقَ بِابِ الْفُرَجِ
وَحُذِّ يَمَنَةً مِنْهُ نَحْوَ الشَّمَالِ
تَصَادِفُ هُنَالِكَ بِابِ الْفُرَجِ
وَمِلْ سَرِيعاً نَحْوَ غَرْبِيَّةِ
تَجِدْ بِابَ عَرَفِ نَسِيمِ الْأَرْجِ
فَالْأَبْيَاتُ تَحَدَّدُ الْمَوْقِعَ وَالْجِهَةَ وَتَقْدِّمُ الْأَسْمَاءَ،
وقال أبو الفتح وكان ملازماً لهذا المسجد، وهو
تونسى^(١٨)؛

كَمْ نَزْهَةً فِي يَلْبِغَا نَبْتَغِي
وَمَدْرَجٍ لَمْ يَخُلْ مِنْ دَرَجِ
يَا حَسَنُهُ مِنْ جَامِعِ جَامِعِ
فَاقِ عَلَى الزُّورَاءِ مِنْ عَلَجِ
يَمُوجُ فِي بَرَكَتِهِ مَاؤُهَا
تَحْتَ مَنَارٍ لَيْسَ بِالْمَائِجِ
مُئَذَّنَةً قَامَتْ عَلَى بَابِهِ
تَشْهَدُ لِلدَّخْلِ وَالْخَارِجِ
تَقْتَرِبُ الْأَبْيَاتُ كَثِيراً مِنَ الْوَاقِعِ وَالتَّصْوِيرِ
الْحَسِيِّ الْمَلُوسِ لِدَرَجَةٍ نَرَى أَنَّ النِّظْمَ هُوَ السَّائِدُ،
وهذا أمرٌ عاديٌّ وَاَرَدَ لِصِنْعَةِ الشَّعْرِ فِي عَصَرِهِ، وَلِثَلِّ
هَذِهِ الْقِصَائِدِ فِي هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ.
وكان جامع يلبغا مُتَنَفِّساً وَمَتَنَزَّهاً لَكثير من
الشعراء، يَقتَرِبُونَ مِنْهُ لِإِزَاحَةِ الْغَمِّ وَغَسْلِ الْهَمِّ
الْعَالِقِ فِي النَفُوسِ، فيقول الشاعر درويش الطالوي
فيه منادماً وَمَتَغَزَّلاً^(١٩)؛

أَنْتُمْ إِذَا هُمْ عَرَاكَ يَلْبِغَا
وَاعْطِفْ بِمَقْصِفِهِ تَنْلُ مَا يُبْتَغَى
وهذا المعنى يَتَكَرَّرُ مَعَ الشَّاعِرِ كَرِيمِ الدِّينِ
الطَّارَاتِي^(٢٠)؛

عَرَّجَ بِسَاحَةِ يَلْبِغَا
تَنْظُرُ بِهِ مَا يُبْتَغَى

مَنْ قَالَ فِي الدُّنْيَا لَهُ
مِثْلٌ يَكُونُ قَدْ لَغَا
ويذكرون أَنَّ ابْنَ حَبِيبٍ هُوَ أَوَّلُ مَنْ مَدَحَ هَذَا
الْجَامِعَ (يَلْبِغَا)^(٢١)؛
يَقُمُ دَمَشَقَ وَمِلْ إِلَى غَرْبِيَّهَا
وَالْمَخَ مُحَاسِنٌ حَسَنِ جَامِعِ يَلْبِغَا
مَنْ قَالَ مِنْ حَسَدٍ رَأَيْتَ نَظِيرَهُ

بَيْنَ الْجَوَامِعِ فِي الْبِلَادِ فَقَدْ لَغَا
وَفِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَقْطُوعَاتِ خَلَّلَ بِالْأَوْزَانِ، وَرَبَّمَا
يَعُودُ هَذَا لِلْمَخْطُوطَاتِ، أَوْ رَبَّمَا لَطَبَعَ الشُّعْرَاءُ الَّذِينَ
لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى التَّفْقِيحِ، وَهَذَا يَبْدُو مِنَ التَّكَرُّارِ لِلْمَعَانِي
وَالْقَافِيَةِ وَالرَّوْيِ.

وَلِجَبِلِ قَاسِيُونَ نَصِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَائِدِ إِذْ دَفِنَ
فِيهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَتَغْنَى الشُّعْرَاءُ
بِالْجَبِلِ وَأَثَارُهُ الرِّفِيعَةُ الَّتِي يَرْتَادُهَا النَّاسُ فيقول
الشيخ عبد الغني النابلسي^(٢٢)؛

جَاءَ النَّسِيمُ بِأَطْيَبِ النِّفْحَاتِ
مِنْ قَاسِيُونَ وَمَنْزِلِ السَّادَاتِ
يَا مَعْهَدًا بِالسَّفْحِ مِنْ ذَاكَ اللَّوَى
لَا زَلَّتْ مَأْوَى الْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ



ولم ينسَ الشعراءُ معاهدَ العلم والعلماءَ وأولي الفضل فأشادوا بدورهم ومكانتهم في دمشق واعتبروهم مشاعِلَ نورٍ وهداية، هذا ما قاله الشاعر علي بن منصور السروجي^(٢٣):

**في كلِّ قصرٍ بها للعلم مدرسةٌ
وجامعٌ جامعٌ للدين معمورٌ
كانَ حيطانُهُ زهرَ الربيعِ فما
يملُهُ الطرفُ فهو الدهرُ منظورٌ
يُتلى القرآنُ به في كلِّ ناحيةٍ
والعلمُ يُذكرُ فيه والتفاسيرُ**

**وبها وقوفٌ لا يزالُ مغلهاً
يستنقذُ الأسرى ويغني الغيلاً
وأئمةٌ تلقى الدروسَ، وسادةٌ**

تشفي النفوسَ، وداؤها قد أعضلا
والباحث في هذا الموضوع يرى الكثير، وبإمكانه التعمُّق في الجوانب الفنية والجزئيات، وهذه الوقفة دافعها الأساسي شعورٌ ديني متدفقٌ، ووفاء للمدينة ورجالها وحبٌ صادقٌ وقد وصَّفها تفصيلاً أو بشكل عام وافدون ومقيمون وقدماء ومحدثون، ومنهم شعراء متمكنون من فنهم وأدواتهم فأبدعوا شكلاً ومضموناً ولا مسوا مشاعرنا، ومنهم من كان أقرب إلى النظم، لا يعنيه الشعر إلا للترجمة والوصف، وتبقى هذه المنظومات ذاكرة جميلة وسجلاً موثقاً يبرز مكانة دمشق عبر العصور التي تتسع رقعتها زماناً ومكاناً ■

والعلمُ يُذكرُ فيه والتفاسيرُ
وهذا المعنى عبَّرَ عنه وأشاد به الشاعر أبو الفضل إسماعيل بن سلطان في أثناء وصفه دمشق فتوقَّف عند مزاراتها ودور عبادتها ورجالها الصالحين^(٢٤):

**يا زائراً يزجي القرومَ البرِّلا
دعْ قصدَ بغدادٍ وخلْ الموصلِ
لا تُزجِها لسوى دمشقَ فإِنَّهُ
سيطِيلُ حَزْراً مَنْ تعدَّى المِصْلِ
بلدٌ جلا صدأ الخواطرِ فانتثنت
كالمرهفاتِ البيضِ واقتِ صَيْقِلِ
ذو ربوةٍ جاء القرآنُ بذكرها
ومساجدِ بركاتها لن تُجهلا
ومدارسٍ لم تأتِها في مُشْكِلِ
إلاَّ وجدتَ فتىً يحلُّ المُشْكِلِ**

(٢٠) السابق: ٢٤٧.

(٢١) السابق: ٢٤٧.

(٢٢) السابق: ٣١٨.

(٢٣) السابق: ٥٢.

(٢٤) السابق: ١٦١.

(١٣) السابق: ٢٨٧.

(١٤) السابق: ٣١٠.

(١٥) السابق: ٣٧٤.

(١٦) السابق: ٣٧٥.

(١٧) السابق: ٥٦.

(١٨) السابق: ٥٧.

(١٩) السابق: ٢٤٧.

(٦) السابق: ٢١٨.

(٧) السابق: ٢٢٤.

(٨) السابق: ٢٣٩.

(٩) السابق: ٢٤٠.

(١٠) السابق: ٢٤٥.

(١١) السابق: ٢٤٨.

(١٢) السابق: ٢٦٣.

الهوامش:

(١) الديوان دمشقي: جمع وتحقيق محمد المصري.

(٢) السابق: ٥١.

(٣) السابق: ١٥٤.

(٤) السابق: ١٧٨.

(٥) السابق: ٣١٥.